

THE UNIVERSALITY OF THE QUR'AN

عالمية القرآن الكريم

Said Rashid Al-Sawafiⁱ

ⁱ (Corresponding author). Co-Professor, Department of Islamic Sciences, College of Education, Sultan Qabus University, Sultanate of Oman. alsuwafi@squ.edu.om

Abstract	<p><i>This study aims to highlight the universality of the Holy Qur'an, focusly to highlight it's authentic source and study the general discourse directed towards the components of the entire world, as well as sik to demonstrate the universality of the Qur'anic approach in various aspects of existential life and confirm its consistency with instinct. This study relies on the inductive approach to track the manifestations of the universality of the Holy Qur'an through the Qur'anic verses. Furthermore, the study is using analytical method in presenting the scientific material, and revealing the general nature and comprehensiveness of the message of the Holy Qur'an. The study has achieved several results, and the most important of them are: The Holy Qur'an is a global message that defines the divine approach to this universe, directed to the spectra of the whole world. This approach is distinguished by the divine nature that has earned it's characteristic of health, honesty and immortality, thus related to organization, direction and development in all aspects of life, cases, and forms. It is also a methodology consistent with global instinct.</i></p> <p>Keywords: <i>Universality, Message, Access, Revelation, Al-Quran.</i></p>
-----------------	--

ملخص البحث	<p>تهدف هذه الدراسة إلى بيان عالمية القرآن الكريم، من خلال إبراز مصدره، والوقوف على عموم خطابه الموجه إلى مكونات العالم أجمع، كما تهدف إلى إظهار شمولية المنهج القرآني مختلف نواحي الحياة الوجودية، وتأكيد تناسقه مع الفطرة. اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي في تتبع مظاهر عالمية القرآن الكريم من خلال الآيات القرآنية. والمنهج التحليلي في عرض المادة العلمية، والكشف عن عموم رسالة القرآن الكريم وشمولها. وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج، أهمها: أن القرآن الكريم رسالة عالمية ترسم المنهج الإلهي لهذا الكون، موجهة إلى أطراف العالم أجمع. هذا المنهج يتصف بصبغة إلهية أكسبته سمة الصحة والصدق والخلود، منهج يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة؛ في جميع حالاتها، وفي كل صورها وأشكالها. كما أنه منهج متسق مع الفطرة العالمية.</p>
-------------------	--

الكلمات المفتاحية: العالمية، الرسالة، المنهج، الوحي، القرآن.

مقدمة

خلق الله الكون بمن فيه من عوالم ومخلوقات، وجعل لكل عالم خصائص مميزة، ووظائف محددة. وفطر مكوّنات هذا الكون بسنن قدرها تقديراً، وكرم الإنسان وفضّله على كثير من هذه العوالم والمخلوقات، بل جعله خليفة في الأرض، يعمرها وفق منهج الله في هذا الكون، دون المساس بمقدّرات الكون والإضرار بمخلوقاته. لذا كان التوجيه الإلهي لهذا الإنسان متواصلًا منذ بداية خلقه، وصولاً إلى الرسالة الخاتمة، عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب، وكان الرسول يُرسل إلى زمن معيّن، وفئة معيّنّة، لتوجيه البشرية إلى منهج الله في الكون.

لكن اقتضت إرادة الله وحكمته أن تكون الرسالة الخاتمة (القرآن الكريم) رسالة عالمية، شاملة منهج الحياة المتكامل لهذا الكون بمن فيه وبما حواه، فجاءت رسالة القرآن رسالة عالمية، شملت آفاق الزمان، والمكان، والمضمون، فهي "الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة".^١

فاتسعت هذه الرسالة لكل قضايا الحياة إلى أن تقوم الساعة. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [القرآن. الفرقان: ١] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القرآن. الأنبياء: ١٠٧]، فهو رسول الله إلى جميع الخلائق في هذا الكون، رحمة بمن في هذا العالم كله؛ من إنس وجن، ودواب وشجر، وغيرها. فبسبب رسالته التي تضمنها القرآن الكريم تكون الرحمة والسلامة للعالم.

ولذا فإن المتأمل في القرآن الكريم يجد العالمية سمة واضحة من سماته، بل هي مضمون ما شمله، فقد حوى كل شيء عن مكوّنات العالم، وهذا ما أكدّه الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [القرآن. الأنعام: ٣٨]. "إن هذه الآية القصيرة - فوق تقريرها الحاسم في حقيقة الحياة والأحياء - لتنهز القلب بما ترسم من آفاق الإشراف الشامل، والتدبير الواسع، والعلم المحيط، والقدرة القادرة، لله ذي الجلال. والمقصود الأول هنا هو توجيه القلوب والعقول، إلى ما في هذه الحقيقة الهائلة الدائمة من دلائل وأمارات، أكبر من الآيات والخوارق التي يراها جيل واحد من الناس".^٢

أهداف الدراسة

^١ القرضاوي، يوسف. ١٩٩٧. الخصائص العامة للإسلام. ط. ١٠٠. بيروت: مؤسسة الرسالة. ص ١٠٥.

^٢ سيد قطب. ١٩٩٨. في ظلال القرآن. ط. ١٥. بيروت: دار الشروق. ج ٢. ص ١٠٨.

تسعى الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- بيان مفهوم عالمية القرآن.
- إبراز أصالة المصدر القرآني.
- الوقوف على عموم الخطاب القرآني.
- إيضاح شمولية المنهج القرآني.
- تأكيد تناسق رسالة القرآن مع فطرة مكّونات العالم.

المنهجية

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي في تتبع مظاهر عالمية القرآن الكريم من خلال منطوق آياته الكريمة، وكذلك اعتمدت على المنهج التحليلي في عرض المادة العلمية، بالإضافة إلى المنهج الاستردادي في الكشف عن عموم رسالة القرآن الكريم وشمولها.

مفهوم عالمية القرآن

مفهوم العالمية: العالمية في لغة العرب مأخوذة من العالم بفتح اللام، وجمعه عوالم. وقد ورد في القواميس اللغوية أن عالم: اسم جمع عوالم، والعالم: الخلق كله، وقيل: كل ما حواه بطن الفلك. والعالم: كل صنف من أصناف الخلق، كعالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم النبات. أو مجموع كل شيء يوجد على وجه البسيطة، كعالم الكائنات بما فيها من مخلوقات وجبال وأودية ونباتات وسماوات.^٣ والعالم ينقسم إلى قسمين؛ عالم الغيب وهو ما لا يعرفه البشر إلاّ بواسطة الأنبياء، فلا يقع تحت الحواس ولا يدركه العقل مباشرة. وعالم الشهادة وهو العالم الظاهر أو مجموع ما يُدرك بالحواس.

ومن ذلك نستخلص أن العالم هو كل ما عدى الله، المتمثل في المخلوقات التي أوجدها الله في هذا الكون، والتي تنقسم إلى أنواع شتى؛ الملائكة، الأنبياء، الرسل، الإنس، الجن، السماوات، الأرض، الجبال، الحيوان، الدواب، الأشجار، النبات، وغيرها من مكّونات هذا العالم.

مفهوم القرآن: القرآن هو كلام الله المنزّل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الموجه إلى العالمين، رحمة بهم وهداية لهم في هذه الحياة. ومنهجاً لهذا الكون بأسره.

^٣ ابن منظور. ١٩٩٧م. لسان العرب. دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ط٢، ج٩، ص٣٧٣. ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، دار الدعوة، ج٢، ص٦٢٤. وقلعجي، محمد رواس وحامد صادق قنبيبي. ١٩٨٨م. معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ج١، ص٣٠١.

والمتمأمل في الخطاب القرآني يجده خطاباً عالمياً، بمعنى أنه موجه إلى هذه العوالم المختلفة - التي ذكرناها سابقاً- صراحة أو ضمناً، وسيأتي تفصيل ذلك كله في محله بإذن الله تعالى. والسبب في ذلك أن القرآن الكريم هو الرسالة الخاتمة لرسالات الله إلى خلقه، لذلك كانت رسالة عالمية، ترسم المنهج الكوني، وهو منهج الله الحاكم لهذا الكون، المنهج الذي ينبغي أن يوجه العالم بكل فئاته وأطيافه وأنواعه، فيحكمه بقوانين تتناسب مع طبيعة كل العوالم.

المبحث الأول: أصالة المصدر

القرآن الكريم هو الوحي الذي جاء من عند الله عز وجل، وهذا يعني أن هذا المصدر صادر عن مدبر هذا العالم بجميع فئاته ومكوناته، وظاهرة الوحي ليست جديدة، بل هي ظاهرة تكررت مع جميع من أرسل الله إلى خلقه، فهي متماثلة عند الجميع، لأن مصدرها واحد وغايتها واحدة، يقول الله تعالى خطاباً لنبه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [القرآن. النساء: ١٦٣ - ١٦٤].

حرص القرآن الكريم التأكيد على تكرار هذه الظاهرة ليبين أن مصدرها واحد، وأن القرآن ما هو إلا كتاب نزل به الوحي على قلب النبي محمد - صلى الله عليه واله وسلم - من عند الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [القرآن. النجم: ٤]، وقال أيضاً: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ [القرآن. الأعراف: ٢٠٣]، وقال جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [القرآن. الشعراء: ١٩٢-١٩٦]. فظاهرة الوحي تدلل على أصالة هذا المنهج الرباني، وأنه لا خلاف في صدوره من جهة واحدة وهو الله سبحانه وتعالى.^٤

يهدف المنهج القرآني إلى غاية حددها المولى عز وجل في إطار تنظيمه لمكونات هذا العالم، لتسير وفق منهج متسق اتساق حركة الكون ونظامه. لقد لفت القرآن الكريم نظر الإنسان إلى أثر قدرة مدبر الكون؛ ليسعى إلى تحقيق الغاية من وجوده وفق المنهج الرباني، فيسير وفق السنن الإلهية التي تُسير نظام الكون والحياة، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [القرآن. العنكبوت: ٢٠].

^٤ الستراوي، عبد الشهيد مهدي. القرآن نهج وحضارة. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، ص ١٢١.

إن المنهج القرآني لم يأت نتيجة إرادة فرد أو إرادة أسرة أو إرادة طبقة أو إرادة حزب أو إرادة شعب، وإنما جاء نتيجة إرادة حكيمة من لدن حكيم خبير، أراد بهذا المنهج الهدى والنور والحق والعدل والشفاء والرحمة للإنسانية والعالمين جميعاً، على اختلاف الأزمان والظروف والأحوال، قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القرآن. الأنبياء: ١٠٧].^٥ والمنهج الصادر عن الله هو وحده القادر دون سواه على منح البشرية ما تحتاجه من القيم المطلقة، التي لا بد أن يكون مصدرها من خارج الإنسان، لا أن تكون منطلقة من الإنسان نفسه، حتى يكون لهذه القيم قوة الإلزام، والقدرة على التأثير في الحياة الإنسانية^٦، وتعامل مع طوائف الكون وفق المنهج الذي حدده مدبره.

رسم القرآن الكريم للعالم نظاماً محكماً لا يمكن أن يصدر من غيره، فالإنسان -مثلاً- محدود الكينونة زمانياً، ومكانياً، وعلمياً، وإدراكاً، وليس لديه قدرة إلا وفق كينونته المحدودة، وفوق ذلك محكوم بصفات الضعف والنقص والميول والشهوة والقصور والجهل؛ بحيث تجعله غير قادر على إيجاد منهج متكامل، سواء في الاعتقاد والتصوير، أو في الحياة بشكل عام، ولو حاول ذلك لكان منهجه موصوفاً بالقصور والضعف في جوانب متعددة، ولا يصلح لكل زمان ومكان.^٧

أما المنهج القرآني فهو من لدن حكيم خبير، إنه يُشَرِّع للعالم قبل وجوده، راسماً أهدافه وغاياته، فهو عالم بما يصلح هذا الكون وما يفسده، واضعاً الحلول المناسبة لما يعتريه من أحوال، على مر العصور والدهور، واختلاف الأماكن والأوضاع، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [القرآن. الملك: ١٤]، إنه سبحانه وتعالى عالم بخفايا الصدور ودقائق الأمور ﴿وَإِن تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [القرآن. طه: ٧]، فعندما أنبأ الله ملائكته بأنه جاعل في الأرض خليفة، عجبوا من ذلك وتساءلوا قائلين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [القرآن. البقرة: ٣٠]، فأجابهم الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [القرآن. البقرة: ٣٠].

أشار القرآن الكريم إلى أصالة مصدره، فمصدره الله سبحانه وتعالى، وليس للإنسان تدخل أو مشاركة، حتى الذي تلقاه ليس له إلا تبليغه كما أنزل إليه من المصدر، يقول الحق تبارك وتعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا

^٥ الصوافي، سعيد بن راشد. الوحدة الإنسانية في القرآن الكريم. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات الفقهية والقانونية، الأردن: جامعة آل البيت، ص ٤٠.

^٦ العمري، أكرم ضياء. ١٩٨٧م. الإسلام والوعي الحضاري. دار المنارة: جدة، ط ١، ص ١٠١.

^٧ يُنظر: مجموعة. ٢٠١٣م. الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة. مركز السلطان قابوس للثقافة والعلوم: سلطنة عمان، ط ١، ص ١٢١.

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿﴾ [القرآن. الشورى: ٥٢-٥٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿﴾ [القرآن. الحاقة: ٤٤-٤٧] وفي هذا تأكيد لقيمة أصالة المصدر، الذي يتصف بصفة القدسية والكمال المطلق.

إن أصدق ما يوصف به منهج القرآن أنه ذو صبغة إلهية، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿﴾ [القرآن. البقرة: ١٣٨]،^٨ مما يكسبه سمة الصحة والصدق والخلود^٩. ولا غرو أن يصف هذا المنهج الرباني وأصالة مصدره من أوتي جوامع الكلم، فقد أثر عنه -صلى الله عليه وسلم- واصفاً القرآن الكريم بقوله الجامع الشامل: { كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبْرُ مَا بَعْدُكُمْ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ فَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنَّ إِذْ سَمِعْتُهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [القرآن. الجن: ٢] مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } (الحديث: الترمذي. باب: فضل القرآن. ٢٩٠٦).^{١٠}

المبحث الثاني: عموم الخطاب

القرآن رسالة إلهية عامة، تخاطب كل أطراف العالم بلا استثناء؛ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [القرآن. الفرقان: ١]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القرآن. الأنبياء: ١٠٧]. فالعالم كله بمن فيه خاضع ومُسَيَّرٌ من قِبَلِ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ، كلٌّ حسب وظيفته المنوطة به، ﴿وَلَهُ مَنْ فِي

^٨ الأشقر، عمر سليمان. ١٩٩٧م. نحو ثقافة إسلامية أصيلة. دار النفائس: عمان، ط٦، ص٤٤.

^٩ العمري، نادية شريف. ٢٠٠١م. أضواء على الثقافة الإسلامية. مؤسسة الرسالة: بيروت، ط٩، ص١٩.

^{١٠} هذا الحديث رواه الترمذي وغيره، وقال عنه الترمذي: "هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال". يُنظر: الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم الحديث (٢٩٠٦) باب: فضل القرآن، ج٥، ص١٧٢، ١٧٣. قال القرطبي في تفسيره: الحارث، رماه الشعبي بالكذب، وليس بشيء، ولم يبين من الحارث كذب، وإنما نقم عليه إفراطه في حب علي وتفضيله له على غيره. يُنظر: القرطبي، محمد بن أحمد. ١٩٩٨م. الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر: بيروت، مج١، ج١، ص١٧. وقال ابن تيمية في كتابه درة المعارض: "له طرق". يُنظر: أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، درة معارض العقل والنقل، تح: محمد رشاد سالم. ١٤٠٠هـ. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: الرياض، ط١، ج٥، ص٢٨٦. قال الخليلي: "ومهما قيل في إسناد الحديث؛ فإن البريق الذي يلمع من عباراته دليل على تألقه من مشكاة النبوة". أحمد بن حمد، ١٩٨٤م. جواهر التفسير، مكتبة الاستقامة: مسقط، ط١، ج١، ص٤.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٗ قَانِتُونَ ﴿ [القرآن. الروم: ٢٦]، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [القرآن. مريم: ٩٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [القرآن. الحج: ١٨]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [القرآن. النحل: ٤٩]. كل هذه المخلوقات خاضعة لمنهج الله في الكون، منقادة إليه طوعاً وكرهاً ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدْوِ وَالْآصَالِ﴾ [القرآن. الرعد: ١٥].

هذا بالنسبة لمخلوقات الله في هذا العالم على اختلاف أنواعها؛ سواء العاقل منها أو غير العاقل. لذا نجد الخطاب الإلهي في القرآن الكريم يتوجه إلى كل نوع من هذه المخلوقات بتوجيهه حسب وظيفته المقدرة له؛ نجد الخطاب للملائكة، الذين هم من مخلوقات الله في هذا العالم، ولهم وظيفة محددة، فهم فقد أخبر الله تعالى أنهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [القرآن. التحريم: ٦]، يقول الله تعالى مخبراً أنه توجه إليهم بالخطاب في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [القرآن. البقر: ٣٤، الإسراء: ٦١، الكهف: ٥٠، طه: ١١٦]، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [القرآن. البقرة: ٣٠].

كذلك نجد الخطاب الإلهي للجَمادات والمخلوقات الأخرى التي -في نظرنا- لا تعقل، ولكن هي منقادة لخالقها حسب طبيعة وظيفتها المقدرة في هذا العالم؛ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۗ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [القرآن. الإسراء: ٤٤] يخاطب الله السموات والأرض، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [القرآن. فصلت: ١١]، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۗ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [القرآن. الأحزاب: ٧٢]، ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القرآن. هود: ٤٤]، يخاطب الله الجبال والطيور: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۗ يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ۗ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [القرآن. سبأ: ١٠]، كما يخاطب النحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۗ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [القرآن. النحل: ٦٨، ٦٩].

أما بالنسبة للخطاب الإلهي الموجه إلى الإنسانية باعتبارها الخليفة في الأرض، والمعهود إليها إعمارها، وباعتبارها الأساس في حمل الأمانة، وتطبيق منهج الله في العالم؛ فإن الخطاب ليس لشعب خاص، يزعم أنه شعب الله المختار، ولا لإقليم معين يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض، فهو خطاب للعالمين جميعاً ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [القرآن. الأعراف: ١٥٩].

يقول سيد قطب: "إنها الرسالة الأخيرة، فهي الرسالة الشاملة، التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل، ولقد كانت الرسائل قبلها رسائل محلية قومية محدودة بفترة من الزمان - ما بين عهدي رسولين - وكانت البشرية تخطو على هدى هذه الرسائل خطوات محدودة، تأهيلاً لها للرسالة الأخيرة. وكانت كل رسالة تتضمن تعديلاً وتحويراً في الشريعة يناسب تدرج البشرية. حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولها، قابلة للتطبيق المتجدد في فروعها، وجاءت للبشر جميعاً، لأنه ليست هنالك رسائل بعدها للأقوام والأجيال في كل مكان. وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً. ومن ثم حملها النبي الأمي الذي لم يدخل على فطرته الصافية - كما خرجت من يد الله - إلا تعليم الله. فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض ومن أفكار الناس! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعاً.^{١١} ولكن تعددت أصناف المخاطبين وفتاتهم في القرآن الكريم حسب نوع الخطاب الموجّه إلى كل فئة ذات خصائص معينة، فتوجيه الخطاب إليها مباشرة لمقصد من الخالق، وهو توجيهها نحو تحقيق الهدف من إيجادها في هذا العالم، واتباع المنهج الذي رسمه الله لها. فالمتأمل للخطاب الإلهي الموجه إلى الإنسانية يلمس شموله جميع الأصناف، حيث إنّه لم يجعل خطابه إلى فئة دون فئة، أو جنس دون جنس، أو أهل دين دون غيرهم، بل شمل ذلك الخطاب أصناف العالمين من المخاطبين على تنوع أجناسهم وألستهم وأديانهم التي يدينون بها.

فقد خاطب الله سبحانه الناس بصيغة العموم في بعض آيات القرآن، وخاطب الأنبياء والمرسلين عليهم السلام في بعض آخر، وخاطب أصناف الناس من المؤمنين والكفار والمشركين، وأشار إلى المنافقين في آيات أخرى، والمقصد من ذلك كله توجيه هذه الأصناف نحو الفضائل. ولنضرب بعض الأمثلة لأصناف المخاطبين في القرآن الكريم لنذكر عموم رسالة القرآن الكريم:

١. **الخطاب الموجه إلى الناس جميعاً:** وجّه القرآن الكريم الخطاب إلى الناس جميعاً في كثير من آياته، وكل خطاب فيه هدف ومقصد؛ ولا يسع المقام لذكرها كلها، بل نسوق بعض الأمثلة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [القرآن. الأعراف: ١٥٨]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ الْعَلِيمُ عَلِيمٌ﴾ [القرآن. الحج: ٤٩]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [القرآن. يونس: ١٠٨]، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [القرآن. البقرة: ٢١]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [القرآن. يونس: ٥٧].

^{١١} قطب. في ظلال القرآن. ج ٢، ص ١٣٧٩.

٢. **الخطاب الموجه إلى الأنبياء والمرسلين:** حوى القرآن الكريم كثيراً من الأمثلة لخطاب الله إلى أنبيائه ورسله لتوجيه الناس إلى عبادة الله وتوحيده، واتباع منهجه، منها: قوله عز وجل في شأن نبي الله يحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [القرآن. مريم: ١٢]، وقوله سبحانه في شأن نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَلَمْ أَقُلْ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [القرآن. المائدة: ١١٦]، وقوله عز وجل في شأن نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [القرآن. الحج: ٢٦-٢٧]، وقوله تعالى في شأن نبي الله داود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [القرآن. ص: ٢٦]، وقوله سبحانه في خطابه لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [القرآن. الأحزاب: ٤٥-٤٦]، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [القرآن. المائدة: ٦٧].

٣. **الخطاب الموجه إلى صنف المؤمنين:** توجه أيضاً خطاب القرآن الكريم إلى صنف المؤمنين خاصة في كثير من آياته؛ لتوجيههم، أو بيان ما فرض عليهم من واجبات، من ذلك: قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [القرآن. البقرة: ١٠٤]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [القرآن. البقرة: ١٥٣]. وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [القرآن. البقرة: ١٧٨]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [القرآن. البقرة: ١٨٣]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [القرآن. البقرة: ٢٧٨]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [القرآن. المائدة: ٢]، وقوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [القرآن. المائدة: ٥١].

٤. **الخطاب الموجه إلى أهل الكتاب:** وجه القرآن الكريم الخطاب في كثير من آياته إلى أهل الكتاب لمناقشتهم، ومحاجتهم، وتوجيههم، ودعوتهم إلى الإيمان والتوحيد، واتباع ما أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك: قول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [القرآن. آل عمران: ٦٤]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [القرآن. آل عمران: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا﴾ [القرآن. المائدة: ٩٨].

[٧٧]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [القرآن. المائدة: ١٥].

٥. **الخطاب الموجه إلى الكفار المشركين:** ظهرت رسالة القرآن في بيئة الشرك، ومن الطبيعي أن يتوجه الخطاب إليهم أولاً؛ لبيان فساد المعتقد وتصحيح العقيدة، والدعوة إلى الرجوع إلى منهج الله القويم، لذا ورد كثير من آيات القرآن الكريم الخطاب فيه موجه إلى الكفار المشركين، ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [القرآن. الأنفال: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾ [القرآن. الكافرون: ١-٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [القرآن. البقرة: ١٦١]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [القرآن. آل عمران: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [القرآن. النساء: ٥٦]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُعْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [القرآن. النساء: ١٦٧-١٦٩].

٦. **الخطاب الموجه إلى المنافقين:** المنافقون فئة محسوبة على المسلمين، وذلك أنهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، فهم يعيشون بين المسلمين ويخالطونهم، والله العليم الخبير مطلع على نواياهم وأعمالهم، ولذلك كان حديث القرآن الكريم عن هذه الفئة في مواقف متعددة؛ يفضح أعمالهم وخبائهم تارة ويتوعدهم تارة أخرى، ويكفي أن سورة بأكملها سميت باسمهم (المنافقون) تتحدث عن ذلك، ومثال ذلك أيضاً: قول الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [القرآن. التوبة: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القرآن. الأحزاب: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [القرآن. الحديد: ١٣].

المبحث الثالث: شمولية المنهج

الحديث عن المنهج القرآني حديث عن النظام المحكم الشامل للكون وما فيه؛ فالله سبحانه وتعالى هو الذي أبدع الكون من العدم، وأوجد فيه من المخلوقات ما لا يحصى عدداً، وجعل أشرف هذه المخلوقات

وأكرمها بني آدم، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [القرآن. الإسراء: ٧٠].

وقد اختار لهذا المخلوق المكرّم منهجاً ودستوراً في الحياة، ينظم سلوكه في الأرض، وعلاقته بخالقه سبحانه وتعالى، وعلاقته بنفسه، وبغيره. وقد حوى القرآن الكريم المناهج التي يحتاجها البشر في تعاملاتهم في حياتهم المعاشية، ولم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا كانت له نظرتة الخاصة، ومنهجه المستقل؛ بحيث ينتج من مجموع مناهجه وأنظمتها تشريع متكامل لمناحي الحياة كلها ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [القرآن. المائدة: ٣].^{١٢}

القرآن الكريم منهج رباني شامل متكامل؛ يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة؛ في جميع حالاتها، وفي كل صورها وأشكالها. وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائنات وحاجاتها، وبحقيقة الكون، وطبيعة النواميس التي تحكمه، وتحكم الكينونة الإنسانية، ولا يفرط في شيء من أمور هذه الحياة، ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أي تصادم بين أنواع النشاط الإنساني، إنما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق.

وهو منهج يمتاز بشموله وكليته، واستيعاب نظرتة كافة شؤون الحياة، ففيه تنظيم علاقة الفرد بخالقه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بمجتمعه، وعلاقة مجتمعه به، وعلاقة الإنسان بما حوله من مخلوقات الله، وفيه بيان للأصول والقواعد التي تحكم سير المجتمع والناس، وفق نظرة القرآن الشاملة للكون والإنسان والحياة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [القرآن. الأنعام: ٣٨].^{١٣}

وهو منهج قائم على العدل المطلق أولاً؛ لأن الله يعلم حق العلم بأي شيء يتحقق العدل المطلق، وكيف يتحقق، وثانياً؛ لأنه سبحانه رب الجميع؛ فهو الذي يملك أن يعدل بين الجميع. وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله؛ لأن صاحبه هو صاحب هذا الكون كله، صانع الكون وصانع الإنسان، فإذا شرع للإنسان، شرع له كعنصر كوني، له سيطرة على عناصر كونية مسخرة له، بأمر خالقه، بشرط السير على هداه، وبشرط معرفة هذه العناصر والقوانين التي تحكمها.^{١٤}

المنهج القرآني شامل في نظرتة إلى الإنسان؛ إذ ينظر إليه نظرة متكاملة متوازنة، فهو ينظر إليه أنه مكون من مادة وروح، ولكل منهما مطالبه، فهو يوضح للإنسان كيفية التوافق والتوازن بين الجانبين، بحيث لا يطغى على الإنسان الجانب المادي؛ فتكون حياته أشبه بالحيوان الذي لا يعي ولا يدرك من أين المسير

^{١٢} يُنظر: مصطفى مسلم. ١٩٩٦م. مباحث في إعجاز القرآن. دار المسلم. الرياض، ط٢، ص٢٤٩.

^{١٣} يُنظر: الصوفي. الوحدة الإنسانية في القرآن الكريم. ص٣٥.

^{١٤} يُنظر: قطب. في ظلال القرآن. ج٢، ص٨٩٠.

وإلى أين، ولا يطغى أيضاً الجانب الروحي؛ فينعزل الإنسان عن الحياة الدنيوية، وما سخر الله له فيها من مقدرات.

وكذلك جاء المنهج القرآني بالتصور الشامل للعقيدة، فقد جاء مفسراً لكل القضايا الكبرى في هذا الوجود، فأعطى التصور الكامل عن الإنسان والكون والحياة، كما أعطى تفسيراً واضحاً للقضايا الكبرى التي شغلت الفكر الإنساني، ولا تزال تشغله، فالإنسان كان ولا يزال يتساءل عن أصله ونشأته ومصيره ونهايته ومنشئه، وعلاقته بخالقه، ودوره في هذا الوجود والعوالم الخافية والمستورة وراء هذا الكون المشهود، وعلاقته بتلك العوالم؛ فالعقيدة في منهج القرآن الشامل تجيب عن ذلك كله.^{١٥}

فهي عقيدة توضح التصور الصحيح للكون والحياة والإنسان، عقيدة تُعرّف هذا الإنسان على نفسه، وسر خلقه، وسبب وجوده، وعلى أساس هذه العقيدة أقام شريعة ونظاماً، لتقوم الحياة في هذا العالم على أساس من التوازن الطبيعي، والتوافق الفطري،^{١٦} عقيدة شملت الوجود كله. فالمنهج القرآني لا يجعل من الإيمان شيئاً يعزل الإنسان عن واقع الحياة، أو يصرفه عن ملاذها، وإنما يجعله انبعاثاً للفكر، وحياة للوجدان، ومضاهياً للعزيمة؛ مما يجعل منه سبباً للعمل المتصل، في غير يأس أو قنوط، لا تفرقة بين دنيا ودين، ما دام العمل خالصاً لرب العالمين.

وفي مجال التشريع شمل المنهج القرآني كل ما يتعلق بالإنسان في حياته، لبناء مجتمع إنساني يقوم على أساس تطبيق شرع الله، وذلك إنما يقوم على أسس ومبادئ إنسانية شاملة، أساسها العدل المطلق الشامل لكل أفراد الإنسانية.

وشمولية المنهج القرآني تتمثل في أن المنهج القرآني نمط فريد، يتسع لكل البشر، بل لكل مكونات العالم، ولا يتأثر بأي نزعة، وإنما يتجه إلى مراعاة المصلحة المطلقة، فهو دائماً مع الحق والعدل.^{١٧} منهاج يسير وفق ميزان لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنان أياً كانت الملابس والأقوال، المنهاج الذي يتوجه لعلاج الضعف البشري ورواسب الجاهلية والعصبية، إنه المنهاج الذي يريد أن يبني القاعدة الصلبة النظيفة التي لا تدينها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية، والتي لا تتأرجح مع الأهواء والميول.^{١٨} فالقيم الإنسانية من العدل والوفاء والأمانة والصدق واحترام الحقوق

^{١٥} الأشقر، عمر سليمان. ١٩٩٧م. نحو ثقافة إسلامية أصيلة. دار النفائس: عمان، ط ٦، ص ٤٩.

^{١٦} من هنا تأتي أهمية المنهج القرآني باعتباره الحل الأمثل لقضايا الإنسان، لأنه يعترف بالثنائية في طبيعته: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [القرآن. الروم: ٣٠]. يُنظر: بيجوفيتش، علي عزت. ١٩٩٤م. الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس. مجلة النور الكويتية: الكويت، ومؤسسة بافاريا - المانيا، ط ١، ص ٣١٨.

^{١٧} الصوافي. الوحدة الإنسانية في القرآن الكريم. ص ٣٦.

^{١٨} يُنظر: قطب. في ظلال القرآن. ج ٢، ص ٧٥١-٧٥٣.

وصون الكرامة والحرية، وغيرها من القيم الإنسانية، تحترم لذاتها في منهاج رسالة الإسلام، وهذا إنما يدل على سعة شمولية منهاج القرآن وتكامله وإنسانيته.

أما فيما يخص شمولية المنهج القرآني على مستوى المجال العالمي فإن القرآن الكريم لم يغفل هذا الجانب، بل أكد أنه خلق هذا العالم الزاخر بأنواع مكنوناته البديعة، التي يزخر بها الكون، وكل هذه المخلوقات إنما قدرها الله لتقوم بوظيفتها في هذا العالم، ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [القرآن. الفرقان: ٢]، فالأشياء في هذا الكون كلها خلق الله، سوى كل ما خلق وهياً لما يصلح له، فلا خلل ولا تفاوت.^{١٩}

هذه المخلوقات اللامتناهية مما نعرفه وما لا نعرفه إنما هي خلق لله، سخر بعضها لنا كبشر لنستفيد منها في حياتنا، يقول الله تعالى ممتناً على عباده بتسخير ما خلقه في هذا الكون لهم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [القرآن. إبراهيم: ٣٢]، ويقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [القرآن. النحل: ١٠-١٧]

إن الناس ليسوا وحدهم في هذا الكون، إن حولهم أحياء أخرى، كلها ذات أمر منتظم، يوحى بالقصد والتدبير والحكمة، ويوحى كذلك بوحدة الخالق، ووحدة التدبير الذي يأخذ به خلقه كله، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [القرآن. الأنعام: ٣٨]. إنه ما من خلق حي في هذه الأرض إلا وهو ينتظم في أمة، ذات خصائص واحدة، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك، شأنها في هذا شأن أمة الناس، ما ترك الله شيئاً من خلقه بدون تدبير يشمله.^{٢٠}

خول الله الإنسان الانتفاع بكل هذه المخلوقات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [القرآن. الجاثية: ١٣] وتسخيرها في إعمار الأرض، بعد أن جعله خليفة فيها، على أنه - سبحانه - جعل الإنسان مسؤولاً عن تصرفاته حيال ما حوله من مقدرات الكون، وحدّره من العبث الذي

^{١٩} الطبري، محمد ابن جرير. ٢٠٠٠م. جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ج ١٩، ص ٢٣٦.

^{٢٠} قطب. في ظلال القرآن. ج ٢، ص ١٠٨٠.

يؤدي إلى الإضرار بالموجودات، بل عدّ من تعدى على ذلك أنه مفسد في الأرض، وحدد جزاءه، وقد ورد كثير من الآيات القرآنية في ذلك، نذكر منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [القرآن. البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [القرآن. الأعراف: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [القرآن. الروم: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [القرآن. المائدة: ٣٣-٣٤].

المبحث الرابع: تناسق رسالة القرآن مع فطرة مكونات العالم

عُرفت الرسالة التي نزل بها القرآن الكريم بالإسلام، وهذا الاسم الذي تسامع الناس به منذ أكثر من أربعة عشر قرناً "عنوان لحقيقة قديمة، بدأت مع الخليقة، وسأيرت حياة البشر، وتسلسلت مع جميع الرسالات التي وصلت الناس بربهم الأعلى، وعرفتهم ما يريد الله منهم".^{٢١} قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [القرآن. فاطر: ٢٤]. وكل رسول من هؤلاء الرسل كان ينزل بهذا الدين المشترك، الذي هو الإسلام، وهو واحد في أركانه وأهدافه وغاياته عند هؤلاء جميعاً. فالإسلام هو دين الله، ودين الفطرة، هتف به كل الأنبياء السابقين منذ آدم إلى محمد خاتم النبيين^{٢٢}:

^{٢١} الغزالي، محمد. ١٩٨٧م. هذا ديننا. دار الشروق: القاهرة وبيروت، ص ١١.

^{٢٢} من الخطأ ما يتردد بين بعض الكتاب والباحثين من مقولة "الأديان السماوية" فكأنها تعني أن الله عز وجل أنزل أدياناً متعددة، وأبلغ كل نبي بعقيدة مختلفة عن غيره من الأنبياء الآخرين، وهذا ما يخالف الواقع والمنطق، كما يخالف منطق رسالة الإسلام. وأول محمد البوطي - ترديد هذه المقولة إلى أنها: شعار وهمي أو (رومانسي) ليس له أي مكان من مركز الجدل واليقين، ولكنه موقف من الدين كله جملة وتفصيلاً، لذا كان لا بد من تصحيح تلك المقولة الخاطئة، ومعرفة أن هناك ديناً سماوياً واحداً، لا أديان سماوية متعددة متشاكسة، ونقول الدين السماوي الحق احترازاً عن الأديان الوضعية التي ابتدعتها الناس لأنفسهم في غابر الأزمان، فهي لا تعدو أن تكون حصاد أخيلة وتصورات، أو تأثيرات اجتماعية وفكرية متخيلة أخذت مبرراتها النفسية من واقع الفطرة الإيمانية العميقة الكائنة لدى إنسان سوي الشعور والتفكير. يُنظر: محمد سعيد البوطي. ١٩٩١. هذا ديننا: مدخل إلى فهم الجذور، دار الفكر، دمشق وبيروت، ط ١، ص ٥٤-٥٦. كما أن هناك أصواتاً تردد شعار "المقاربة بين الأديان". فإن رسالة الإسلام سبقتهم بل صححت ذلك المفهوم، فدعت إلى دين واحد،

١. فنبى الله نوح يقول: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [القرآن. يونس: ٧٢، النمل: ٩١].
٢. ونبي الله إبراهيم يوصي بنيه: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [القرآن. البقرة: ١٣٢].
٣. ونبي الله موسى يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [القرآن. يونس: ٨٤].
٤. ونبي الله يوسف يقول: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [القرآن. يوسف: ١٠١].

ثم أرسل الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالشريعة الكاملة لهؤلاء الأنبياء، ليكمل العقد، وتختتم الرسالات السماوية، يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً بنبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - بقوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۗ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَا هُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقُصُّهُمْ عَلَيْكَ ۗ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [القرآن. النساء: ١٦٣-١٦٥].

فما هو الإسلام؟ ولماذا سميت رسالة القرآن بالإسلام؟

إن معنى كلمة الإسلام: "الانقياد والامتثال لأمر الأمر ونهيه بلا اعتراض"^{٢٣} وعلى ذلك فالكون بما فيه وبمن فيه خاضع ممتثل للخالق، منقاد لأمره من حيث الفطرة، قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [القرآن. آل عمران: ٨٣]، قال صاحب المنار: "والحال أن جميع من في السموات والأرض من العقلاء قد خضعوا له تعالى، وانقادوا لأمره طائعين وكارهين، وقد اختلفوا في بيان إسلام الطوع والكره؛ فذهب بعضهم إلى أن الإسلام هنا متعلق بالتكوين والإيجاد والإعدام؛ فهم في ذلك منقادون لتصرف الله.

وذهب آخرون إلى أن الإسلام متعلق بالتكليف والدين فقط، وصاحب هذا القول يفسر الكره بما يكون عند الشدائد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَشِيتُمْ مَوْجُ كَالظُّلِّ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [القرآن. لقمان: ٣٢]. وهناك مذهب ثالث وهو أن الإسلام أعم من إسلام التكليف وإسلام التكوين؛ فهو يشمل ما يكون بالفطرة، وما يكون بالاختيار"^{٢٤}. ثم إنه بعد ذلك قُصرت كلمة الإسلام في الاستعمال على

وهو الذي أنزله الله على رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن سبقه من الأنبياء، فليس هناك أدیان حتى تتقارب، وإنما هو دين واحد هو دين الله (الإسلام).

^{٢٣} المودودي، أبو الأعلى. مبادئ الإسلام. دار الفكر، ص ٤.

^{٢٤} رضا، محمد رشيد. ١٩٩٠م. تفسير المنار. دار الفكر، ط ٢، ج ٣، ص ٣٥٤-٣٥٥. بتصرف بسيط.

الانقياد لأمر الله طوعاً^{٢٥}؛ فكل من أذعن وخضع لأمر الله طائعاً مختاراً فهو مُسلم. وبالنظر إلى واقع الحياة نجد أن المخلوقات نوعان^{٢٦}:

النوع الأول: منقاد لقانون الفطرة العام الذي ليس فيه اختيار، فهو مُسلم بالجبر، أي أنه خاضع لناмос الحياة، الذي سنه الله لجميع مخلوقاته في هذا الوجود؛ من شجر وزرع وثمر وحيوان ونجوم وكواكب وغيرها، فالإنسان -مثلاً- لا يولد ولا يحيا ولا يموت إلا وفق قانون الله، وكذلك أعضاء جسده تعد مسلمة؛ لأنها لا تعمل إلا وفق قانون الله العام^{٢٧}، وهذا موافق لما ذهب إليه بعض المفسرين في تفسير الآية السابقة؛ وهو أن هذا الإسلام متعلق بالتكوين.

النوع الثاني: مختار بما اختصه الله من صفات تميّزه عن غيره، وهو ما ينطبق على الإنسان، فبحكم ما ميزه الله تعالى عن غيره من المخلوقات جعل له حرية الاختيار، وهذه حكمة تقتضيها طبيعة هذا المخلوق، الذي أوتي قوة العقل والفهم والإدراك والتأمل؛ فهو بهذه القوة التي أوتيتها يسلم بشيء وينكر آخر؛ فهو غير مقيد بعد أن أوضح الله له السبل ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [القرآن. البلد: ١٠]. والناس بهذه الصورة نوعان:

أ. إنسان انقاد لمنهج الله وأذعن لأمره وخضع لشعره طائعاً مختاراً؛ وبذلك وفق إلى الفطرة السليمة السوية، فامتثل بذلك أمر الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [القرآن. الروم: ٣٠]. أي: إن الله خلق الناس قائلين لأحكام هذا الدين، وجعل تعاليمه مناسبة لخلقهم^{٢٨} قال ابن عطية: "والذي يُعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة (أي الفطرة) أنها الخِلقَة والهيئة التي في نفس الإنسان، التي هي مُعدّة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه"^{٢٩}.

وبهذا الاتجاه يصبح الإنسان ذا إنسانية؛ لأنه اختار الطريق السليم، فأصاب الفطرة السوية، فتمثلت فيه الإنسانية بمعانيها وأهدافها، وإسلامه هذا يعني إنسانيته، والقرآن الكريم يؤكد التطابق الكامل بين الدين وبين الإنسانية - كما في الآية السابقة - ويؤكد هذا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: { كل مولود يولد على الفطرة } (الحديث. البخاري. كتاب الجنائز. ١٣٨٥). وإذا لاحظنا أن مفهوم الإسلام هو التسليم لله، فإن هذا يعني: "أن كل شيء عندما

^{٢٥} طبارة، عفيف. ١٩٩٥م. روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين: بيروت، ط ٣٠، ص ١٦.

^{٢٦} يُنظر: الصوافي. الوحدة الإنسانية في القرآن الكريم، ص ٣١.

^{٢٧} يُنظر: المودودي. مبادئ الإسلام، ص ٦-٨.

^{٢٨} ابن عاشور، محمد الطاهر. ١٩٨٤هـ. التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر: تونس، ج ٢١، ص ٩٠.

^{٢٩} ابن عطية، عبد الحق بن غالب. ١٩٩٣م. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ج ٤، ص ٣٣٦، بتصرف.

يقف في مكانه الحقيقي من الخلق فهو مسلم، وبذلك يكون موقع الإنسان من الخلق إنسانيته وإسلامه بنفس الوقت".^{٣٠}

ب. وإنسان آخر لم يدعن لمنهج الله وتعاليمه، نتيجة تعطيله الوسائل الإدراكية، التي وهبها الله له، لتبني له طريق الحق والخير، طريق الفطرة الصحيحة، فأبى أن ينقاد لشرع الله وقانونه، وتنكر لقانون الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبذلك ظلم نفسه، وسقط بها في الهاوية؛ ولذا كان حرباً بوصف القرآن له: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۗ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافُونَ﴾ [القرآن. الأعراف: ١٧٩]. يقول سيد قطب: "إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني، هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال، وذلك مع إبداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها، ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى، ومع إرسال الرسل بالبينات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل، ولكن يبقى بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به، وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره".^{٣١}

فواضح مما تقدم أن الإسلام هو دين الله، وهو دين الفطرة ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [القرآن. آل عمران: ١٩]، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۗ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۗ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القرآن. الروم: ٣٠].^{٣٢}

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

١. القرآن الكريم رسالة عالمية، ليست لقوم أو شعب، وليست لزمان أو مكان معين، ولكن للعالم أجمع.
٢. الخطاب القرآني خطاباً عالمياً، بمعنى أنه موجه إلى هذا العالم بمختلف أطيافه صراحة أو ضمناً، رسالة عالمية ترسم المنهج الإلهي لهذا الكون، فيحكمه بقوانين تتناسب مع طبيعة كل مكوناته.

^{٣٠} الصدر، موسى. ١٣٩١هـ-١٩٧١م. رعاية الإسلام للقيم والمعاني الإنسانية. الأزهر، الجزء الثالث: السنة الثالثة والأربعون، ص ٤٥.

^{٣١} قطب. في ظلال القرآن. ج ٣، ص ١٤٠.

^{٣٢} ابن عاشور. التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٩٢.

٣. تناسق المنهج القرآني مع ناموس الكون يرجع إلى أصالة المصدر، وهي النقطة الفارقة بين المنهج القرآني الإلهي والمناهج الوضعية، وأصدق ما يوصف به منهج القرآن أنه ذو صبغة إلهية، أكسبته سمة الصحة والصدق والخلود.
٤. القرآن الكريم منهج حياة للعالمين جميعاً؛ فيه كل ما تحتاجه البشرية من نُظْمٍ وتشريعات؛ فهو يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير، كل جوانب الحياة الإنسانية؛ في جميع حالاتها، وفي كل صورها وأشكالها.
٥. منهج القرآن منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني، والحاجات الإنسانية، وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان، وبطبيعة النوااميس التي تحكمه، وتحكم الكينونة الإنسانية، ولا يفرط في شيء من أمور هذه الحياة، ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أي تصادم بين أنواع مكُونات العالم، إنما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق.

التوصيات

١. الاهتمام بالدراسات التي تُعنى ببيان الرسالة السماوية الخاتمة باعتبارها المنهج العالمي لهذا الكون.
٢. عقد مؤتمر خاص لهذا الموضوع.
٣. توجيه الباحثين في الدراسات العليا للقيام بمشاريعهم البحثية في مثل هذه الموضوعات.

المراجع

- الأشقر، عمر سليمان. ١٩٩٧. نحو ثقافة إسلامية أصيلة. عمّان: دار النفائس.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. ١٩٨٤. التحرير والتنوير. تونس. الدار التونسية للنشر.
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب. ١٩٩٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن منظور. ١٩٩٧. لسان العرب. دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي.
- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم. ١٩٨٠. درء تعارض العقل والنقل، تح: محمد رشاد سالم. الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. ١٩٩٥. الجامع الصحيح من متن فتح الباري. بيروت: دار الفكر.
- البوطي، محمد سعيد. ١٩٩١. هذا ديننا: مدخل إلى فهم الجذور. دمشق وبيروت: دار الفكر.
- بيجوفيتش، علي عزت. ١٩٩٤. الإسلام بين الشرق والغرب. ترجمة: محمد يوسف عدس. الكويت: مجلة النور الكويتية.

- الترمذي، محمد بن عيسى. سنن الترمذي، تح: أحمد محمد شاکر وآخرون. بيروت دار إحياء التراث.
الخليلي، أحمد بن حمد. ١٩٨٤. جواهر التفسير. مسقط: مكتبة الاستقامة.
رضا، محمد رشيد. ١٩٩٠. تفسير المنار. دار الفكر.
الستراوي، عبد الشهيد مهدي. القرآن نهج وحضارة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
الصدر، موسى. ١٩٧١. رعاية الإسلام للقيم والمعاني الإنسانية، الأزهر (الجزء الثالث - السنة الثالثة والأربعون).
الصوافي، سعيد بن راشد. ١٩٩٩. الوحدة الإنسانية في القرآن الكريم، (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الدراسات الفقهية والقانونية. الأردن: جامعة آل البيت.
طبارة، عفيف. ١٩٩٥. روح الدين الإسلامي. بيروت: دار العلم للملايين.
الطبري، محمد ابن جرير. ٢٠٠٠. جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاکر. بيروت مؤسسة الرسالة.
العمري، أكرم ضياء. ١٩٨٧. الإسلام والوعي الحضاري. جدة: دار المنارة.
العمري، نادية شريف. ٢٠٠١. أضواء على الثقافة الإسلامية. بيروت: مؤسسة الرسالة.
الغزالي، محمد. ١٩٨٧. هذا ديننا، القاهرة وبيروت: دار الشروق.
المودودي، أبو الأعلى. مبادئ الإسلام. دار الفكر.
مجمع اللغة العربية بالقاهرة. المعجم الوسيط. دار الدعوة.
مجموعة. ٢٠١٣. الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة. مسقط: مركز السلطان قابوس للثقافة والعلوم.
مصطفى مسلم. ١٩٩٦. مباحث في إعجاز القرآن. الرياض: دار المسلم.
القرضاوي، يوسف. ١٩٩٧. الخصائص العامة للإسلام. بيروت: مؤسسة الرسالة.
القرطبي، محمد بن أحمد. ١٩٩٨. الجامع لأحكام القرآن. بيروت: دار الفكر.
قطب، سيد. ١٩٩٨. في ظلال القرآن. بيروت والقاهرة: دار الشروق.
قلعجي، محمد رواس وحامد صادق قنبي. ١٩٨٨. معجم لغة الفقهاء. دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.

REFERENCES

- al-Ashqar, 'Umar Sulayman. 1997. *Nahwa Thaqafah Islamiyyah Asilah*. Amman: Dar al-Nafa'is.
al-Bukhari, Muhammad bin Isma'il. 1995. *al-Jami' al-Sahih Min Matn Fath al-Bari*. Bierut: Dar al-Fikr.
al-Buti, Muhammad Sa'id. 1991. *Hadha Dinuna: Madkhal Ila Fahm al-Judhur*. Dimashq: Dar al-Fikr.
Begovich, 'Ali 'Izzat. 1994. *al-Islam Bayna al-Sharq Wa al-Gharb*. Muhammad Yusof 'Adas. (trans.). al-Kuwayt: Majallat al-Nur al-Kuwaytiyyah.
al-Ghazali, Muhammad. 1987. *Hadha Dinuna*. al-Qahirah: Dar al-Shuruq.

- Ibn 'Ashur, Muhammad al-Tahir. 1984. *al-Tahrir wa al-Tanwir*. Tunis: al-Dar al-Tunisiyyah Li al-Nashr.
- Ibn 'Atiyyah, Abd al-Haqq bin Ghalib. 1993. *al-Muharrar al-Wajiz Fi Tafsir al-Kitab al-'Aziz*. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
- Ibn Manzur. 1997. *Lisan al-'Arab*. N.pl: Dar Ihya' al-Turath al-Arabiyy wa Mu'assasat al-Tarikh al-'Arabiyy.
- Ibn Taymiyyah, Ahmad bin 'Abd al-Halim. 1980. *Dar'u Ta'arud al-'Aql wa al-Naql*. Muhammad Rashad Salim. (ed.). al-Riyad: Jami'at al-Imam Muhammad Bin Sa'ud al-Islamiyyah.
- al-Khaliliyy, Ahmad Bin Hamad. 1984. *Jawahir al-Tafsir*. Musqat: Maktabat al-Istiqamah.
- Majma' al-Lughah al-'Arabiyyah Bi al-Qahirah. *Mu'jam al-Wasit*. N.pl: Dar al-Da'wah.
- al-Mawdudiyy, Abu al-A'la. N.d. *Mabadi' al-Islam*. N.pl: Dar al-Fikr.
- Majmu'ah. 2013. *Al-Thaqafat al-Islamiyyah wa Tahaddiyat al-Mu'asirah*. Musqat: Markaz al-Sultan Qabus li al-Thaqafah wa al-'Ulum.
- Mustafa Muslim. 1996. *Mabahith Fi I'jaz al-Qur'an*. Riyad: Dar al-Muslim.
- al-'Umariyy, Akram Diya'. 1987. *al-Islam wa al-Wa'yu al-Hadari*. Jeddah: Dar al-Manarah.
- al-'Umariyy, Nadiyah Sharif. 2001. *Adwa' 'Ala al-Thaqafat al-Islamiyyah*. Beirut: Mu'assasat al-Risalah.
- al-Qaradawiyy, Yusuf. 1997. *al-Khasa'is al-'Ammah Li al-Islam*. Beirut: Mu'assasat al-Risalah.
- al-Qurtubiyy, Muhammad bin Ahmad. 1998. *al-Jami' Li Ahkam al-Qur'an*. Beirut: Dar al-Fikr.
- Qutub, Sayyid. 1998. *Fi Zilal al-Qur'an*. Beirut: Dar al-Shuruq.
- Qal'ahjiyy, Muhammad Rawwas & Hamid Sadiq Qunaybiyy. 1988. *Mu'jam Lughat al-Fuqaha'*. N.pl: Dar al-Nafa'is li al-Tiba'ah Wa al-Nashr Wa al-Tawzi'.
- Rida, Muhammad Rashid. 1990. *Tafsir al-Manar*. Dimasq: Dar al-Fikr.
- al-Sadr, Musa. 1971. *Ri'ayath al-Islam li al-Qiyam wa al-Ma'ani al-Insaniyyah*. Vol. 3. No. 43. N.pl: al-Azhar.
- al-Sawafiy, Sa'id bin Rashid. 1999. *al-Wihdat al-Insaniyyah Fi al-Qur'an al-Karim*. (Unpublished Master Thesis). Jami'ah Al al-Bayt .
- al-Sitrawiy, 'Abd al-Shahid Mahdiyy. N.d. *al-Qur'an Nahjun wa Hadarah*. N.pl: Mu'assasat al-'Alam li al-Matbu'at.
- Tabarah, 'Afif. 1995. *Ruh al-Din al-Islamiyy*. Beirut: Dar al-'Ilm li al-Malayin.
- al-Tabariyy, Muhammad bin Jarir. 2000. *Jami' al-Bayan Fi Ta'wil al-Qur'an*. Ahmad Muhammad Shakir. (ed.). Beirut: Mu'assasat al-Risalah.
- al-Tirmidhiyy, Muhammad bin 'Isa. n.d. *Sunan al-Tirmidhiyy*. Ahmad Muhammad Shakir wa Akharun. (ed.). Beirut: Dar Ihya' al-Turath.

إنكار

الآراء الواردة في هذه المقالة هي آراء المؤلف. القناطر: مجلة الدراسات الإسلامية العالمية لن تكون مسؤولة عن أي خسارة أو ضرر أو مسؤولية أخرى بسبب استخدام مضمون هذه المقالة.